

## الفصل الثالث

### عليك أن تخرق القانون قبل أن تصنع

#### 16 بليون جوربا

تمتد مقاطعة هوبي Hobei الجبلية الخضراء على غير ما نَسَق في أواسط الصين، تبعد نهايتها الشرقية ثلاثمائة ميل عن شنغهاي. ويجهل الغربيون جمال هوبي، إلا أولئك الذين رأوا فيلم النمر الرابض والتنين المتواري Crouching Tiger، Hidden Dragon، إنه تحفة انج لي Ang Lee الفنية بمؤثراته الخاصة الذي عرض روعة المقاطعة تحت المدارية. وإن هوبي منقّة من أغنى مناطق الصين الزراعية، وهي مصدر مهم للحبوب والخضار. فيها الأودية المائية على نهر يانجنز Yangtze الذي يُعرَف أيضاً باسم الأودية الثلاثة Three Gorges، التي نُسِجَت حولها معظم الحكايات عن أعاجيب الطبيعة. وتضم أيضاً موقع سد الأودية الثلاثة Three Gorges Dam، الذي يرتفع ستمئة قدم ويبلغ طوله 1.2 ميل ليشكل حوضاً مائياً طوله 350 ميلاً يشبه البحيرة العظمى Lake Superior. وقد أدى بناء أكبر هيكل إسمنتي في العالم إلى إعادة توطين 820.000 شخصاً، سيتبعهم 350.000 آخرين. وسيؤدي المشروع إلى إزالة محيط الأودية الثلاثة وعدة مدن أخرى. ويهدف السد إلى توليد الكهرباء لتغذية نهضة اقتصادية داخلية وإنقاذ المنطقة من التقلبات الموسمية لنهر اليانجنز Yangtze.

إنه لعجب أن يغادر كثيرون من سكان هوبي، برغم جمال طبيعتها، وإمكانية التنمية الاقتصادية فيها في المدى البعيد، إنهم يغادرونها سيراً على الأقدام، وعلى الدراجات، ومتعلقين بأطراف الشاحنات، ويركبون المقاعد القاسية في

القطارات، حيث يتدفقون في موجة المهاجرين التي تكتسح الصين. وبقدر ما رفعت إصلاحات الصين مستوى حياة سكان مدنها، بقيت المناطق الريفية أرضاً للِعوز والحاجة. لقد رفضت معجزات الاقتصاد الجديد الكثيرة أن تأتي ولا بد من مطاردتها.

إن تشانجزين Changxin قرية زراعية صغيرة في هوبي تشبه قرى كثيرة مثلها، طالما اشتكى المسؤولون ذهاب أبنائها إلى العمل في مكان آخر. لقد غادر ثلاثمئة قروي من بين ألف قروي، وإن اثنين فقط من خمسة وعشرين عضواً من أعضاء الحزب في القرية هم تحت سن الأربعين، ويشير ذلك إلى خلل سيقع في قيادتها في المستقبل. لقد اكتسب الرحيل الريفي زخماً يضعف الريف مع كل تذكرة مغادر في قطار، ويعطي من لم يرحل مزيداً من أسباب الرحيل. ويجد المسؤولون سيئو الطالع في تشانجزين، الذين بقوا مع من بقي، صعوبة في إيجاد جيران يتطوعون لأداء أعمال مثل مراقبة فيضان النهر - فنهر يانجتز عرضة للتصدع - وأعمال الإنقاذ - وتقع هوبي على قمة خط فائق زلازل رئيس. وحسبك سوءاً أن تعيش في قرية فقيرة، غير أن الأسوأ هو أن تعيش حيث تتلاشى الحياة المدنية مع المهاجرين المنسحبين.

ولا تستطيع البلديات متوسطة الحجم أن تحتفظ بساكنيها. ففي مكان آخر من المقاطعة، في بلدة تشاهي Chahe في مدينة هونجهو Honghu، وهي محافظة يعيش فيها أربعون ألف شخص، غادر ربع سكانها للعمل في مكان آخر. وما زال كثير من السكان، كما هو حال هذه القرى، يجدون في الزراعة سبيلاً إلى العيش. ويعني هذا في هونجهو عيش الكفاف. فدخل الفرد السنوي في الأسر المزارعة لا يتجاوز 12.50 دولاراً ولا بد من وصول مال إضافي من مكان آخر، من أعمال غير نظامية أو عن طريق حوالات يرسلها من شق طريقه إلى الخارج. ومما يزيد الأمور سوءاً أن كثيراً من الحقول تُركت غير مزروعة؛ لأن ما بقي من السكان كبير السن لا يمكنهم العمل والعناية في أرض العائلة. وقد

ترك ربع الأرض الزراعية بوراً في إقليم جيانلي في هوبي، لأن مئتي ألف شخص تركوها للعمل في المدينة. وبرغم ذلك، فإن المنطقة وجوارها تدين بملايين من أموال الضرائب على الأرض، إضافة إلى الفائدة، وليس ثمة أمل في تسديدها.

وليست هوبي الوحيدة. فلكل منطقة ريفية في الصين قصة كئيبة، منها إقليم في مقاطعة هنان Hunan التي فقدت 156.000 مزارعاً ركبوا قطار الهجرة. أما الحقول التي كانت تفيض بالمرزوعات أصبحت الآن بوراً ومرتعاً للأعشاب الضارة. ويتساءل رجل في الخامسة والستين من عمره بقي وراء الركب، «لماذا لا تبتكر السلطات العليا حلولاً لمناطق مثل التي نعيش فيها؟ إنها بلدة مفرغة لم يبق فيها سوى الشيوخ؟ ليس هناك من يريد أن يكون مسؤولاً في قرية.

وبلغت الهجرة في بعض مناطق مقاطعة سيتشوان Sichuan نسبة عالية حتى أننا نجد كل أسرة تبعث شخصاً إلى الخارج. وفي إقليم سانتاي Santai، الذي يحوي من المزارعين أكثر من أي إقليم آخر في الصين، ولما كان عدد سكانه يزيد على مليون ونصف مليون، فإن سبعة من كل عشر أسر ودَّعت فرداً منها، ذهب ليجث عن عمل في المدينة. ولا عجب أن نجد على مزارعي سانتاي أن يزرعوا قطعاً من الأرض لا تزيد مساحتها عن إيكرو واحد (0.05 هكتاراً). وكم تصعب الحياة على قطعة أرض أصغر من مسبح أولمبي. ويغادر سكان سانتاي المنطقة بأقصى سرعة ممكنة، فهم يعرفون، مثلما عرّف السيد لي وزوجّه، أن أبسط الأعمال في المدينة تدر أجوراً أفضل من المناطق الزراعية الفقيرة.

أصبحت الفرصة الاقتصادية في الصين، التي تدفعها الجغرافية بالدرجة الأولى، غير متوازنة حتى صارت الصين تصنف بين الدول الأكثر بعداً عن المساواة. فمتوسط الدخل في الريف لا يزيد عن ثلث دخل أهل المدينة. غير أن الإحصاءات لا تستطيع أن تقيس التفاوت في خدمات الحكومات المحلية بسهولة. ومع قدوم الإصلاح، صار لزاماً على الأقاليم المحلية أن تدعم خدماتها الاجتماعية الخاصة كالمدراس. فقسم مجلس الشعب الوطني سنة 1998م وزارة

التربية إلى قسمين، تاركاً التعليم الريفي في سقوط حر. ففي المحافظات الصينية الأكثر فقراً تتعدم فرص حصول الطفل على التعليم الأساسي تماماً. ففي خمس وثلاثين منطقة ريفية كانت موضوع بحث أجري من أجل مشروع جديد للبنك الدولي، تبين أن أربعة من كل عشرة أطفال بين عمر السابعة والخامسة عشرة لم يشموا رائحة التعليم المدرسي. وكان فرص البنات أقل كثيراً من الصبيان. ولما كانت الزراعة شحيحة المورد، وكانت الميزانيات الإقليمية ضعيفة جداً، أو تعاني من سوء الإدارة التي لا تستطيع توفير الخدمات الأساسية، تصبح المدرسة بعيدة المنال. وينسحب الازدهار المدني في الصين مع كل نشرة دعائية من آلة الأخبار الحكومية، التي تبث قصة بعد قصة عن النجاح العظيم لاقتصاد البلاد، الذي يعد إعلاناً ملحاً يدعو الناس للنزوح إلى المدن.

تجول دان رايت Dan Wright، المدير السابق لبرنامج هوبكنز - نانجينج Hopkins-Nanjing في كلية الدراسات الدولية المتقدمة في جامعة جونز هوبكنز Johns Hopkins University School of Advanced International Studies، في الريف الصيني سنة كاملة سيراً على الأقدام، تحدث فيها مع فلاحين في أفقر مناطق الصين. ورأى رايت السخرية المرة في أن رفاهية الصين المزدهرة قد عمّقت حرمان ملايين الفقراء في الصين. جمع رايت قصصاً في كتابه وعد الثورة The Promise of the Revolution: «تذمّر مدرّس في إحدى القرى من أن ثلث نفقات المدرسة... تُنفق على طعام مسؤولي التعليم المحلي الذين يأتون في زيارات «تفتيشية». إنهم يسافرون من قرية إلى قرية يأكلون ويشربون، ولا نجرؤ على تقديم طعام بسيط لهم، لما لهم علينا من سلطة.

وثمة دافع قوي آخر لمغادرة الريف هو البؤس الذي يوقّعه المسؤولون المحليون الطماعون والمتنفذون. فقد غدت مضايقات المزارعين إحدى الضغوط المفجّرة، وعندما نشرت مجلة صينية تقريراً في كانون الأول/ ديسمبر سنة 2003م

ل تشن جيدي Chen Guidi و وو تشونتاو Wu Chuntao الزوجان الكاتبان في هيفي Hefei عاصمة مقاطعة أنهوي Anhuui. وقد سبب كتابهما (فلاحو الصين) تحقيق China's Peasants: An Investigation، إحساساً جعله يجدد الغلاف بجاذبية أكثر ككتاب من 460 صفحة بيعت منه مئتا ألف نسخة من الطبعات النظامية، وعندما منعت الحكومة الكتاب باع سبعة ملايين نسخة أخرى طُبعت سراً.

وانطلقت فكرة كتاب China's Peasants من اللحظة التي سمعت فيها وو Wu عن أم ريفية نزلت حتى الموت عقب ولادة ابنها لأنها لم تكن تملك 360 دولاراً طلبتها المستشفى المحلية لعلاجها. فقررت وو Wu، التي صارت أمماً، أن تبحث عن الأسباب الاقتصادية للمأساة، وتتبع أسباب ذلك قدر ما تستطيع.

وأَمْضى الزوجان ثلاث سنوات يجولان في أنوي Anhuui يجمعان القصص. استقبلهما المسؤولون بحماسة في البداية. وقرأ كثير من الناس الكتاب على شبكة الإنترنت، حيث طبعه متطوعون في مجموعات إخبارية. وقيل إن القراء كانوا يبكون ويستشيطنون غضباً من القصص التي يقرؤونها في الكتب وعلى الشاشات. وعندما ثبت أن رد الفعل أقوى مما ينبغي، أمرت الحكومة الناشر الحكومي الذي طبع الكتاب أول مرة أن يوقف بيعه. فشعر الصحفيون الآخرون بالخزي بسبب الكتاب، ووجدوا أنهم قد تجاوزوا آلام أبناء ريف بلادهم.

وكتب الزوجان في مقدمة كتابهما: «شاهدنا فقراً لا يمكن تصوُّره، وشراً لا يخطر على بال، ورأينا معاناة لا توصف، وبأساً، ومقاومة لا يمكن تصورها، وصمتاً لا يفهمه أحد؛ فدفعنا ذلك إلى وراء الخيال في مأساة لا تصدق.» صدم المؤلفان أن وجدا نصف قرن من الإصلاحات الزراعية خلفت مزارعين دون ثروة مازالوا يعتمدون على وسائل الزراعة البدائية وتتزعزع منهم الضرائب. وبينما ارتفع دخل المناطق الريفية بمعدل 90 بالمئة منذ منتصف تسعينيات القرن العشرين، فإن المحليين يدفعون أربعة أضعاف الضريبة التي كانوا يدفعونها

أو ربما أو خمسة أضعافها، للاستفادة من الرفاهية النامية في البلاد، قام المسؤولون المحليون عملياً بمسح تلك الرفاهية كاملة عمن يستحقها، وتركوا لهم مئات أنواع الضرائب الجديدة. فالزوجان اللذان يرغبان بالزواج عليهما أن يدفعوا أربعة عشر ضريبة لتسجيل زواجهما. فالنظام الضريبي يشكل دافعاً للهجرة. والمزارعون يشكلون جزءاً مما يشكله سكان المدن، وإنما تطلب الحكومة منهم تحمل ضرائب لا تتناسب مع ما يدفعه سكان المدن.

والكتاب مليء بمشروعات وهمية فاسدة لاتُحصى تبقى المزارعين فقراء. ويصف بالتفصيل كيف يعصر المسؤولون المحليون في أنوي Anhui المزارعين في دفعات مختلف أنواعها. والاختلاس جريمة أخرى مألوفة؛ فالمبالغ التي تخصص للتحسينات العامة تختفي بانتظام. وقد جلبت الاهتمام الوطني في الصين قصة عن دنج زومنج Ding Zuoming، القروي الذي ساءته السرقات والاختلاسات الصغيرة حتى طلب تفتيشاً عاماً للصندوق المحلي. قال المؤلفان إن دنج فلاح عادي، غير أنه تلميذ نجيب لم يستطع دخول التعليم الجامعي لنقص درجتين في علاماته في الامتحان الوطني. وقالوا: إنه لو عاش في المدينة لاستطاع الحصول على تعليم أفضل ولعاش حياة أفضل. لقد عانى بصمت، وبقي مع أسرته في مزرعة لم يكن فيها ما يؤكل. وقد اعتُقل بعد أن طلب المحاسبة العامة، وضرب في معتقله حتى مات. فعوقب قاتلوه، ووُعدت أسرته بمال لم يصل إليها أبداً. وأجبر أطفال القتل على ترك المدرسة، وترك أبواه المريضان يذبلان.

وخصّصت الحكومة معظم سنة 2004م للإعلان عن إجراءات تُخفف من شكاوى المزارعين، استجابة للكتاب، وخوفاً من أن يهدد عدم التوازن بين مناطق الصين الغنية وريفها استقرار البلد وتقدمه. فقامت بتخفيف الضرائب، ومنح الإعانات، وبذل جهد لتشجيع الصناعات على التمرکز في مناطق الصين الأفقر. ودفع رئيس الوزراء ون جيباو Wen Jiabao بنفسه في سنة 2004م في جهود

تعطي العمال المهاجرين ملايين الدولارات المسترجعة من الموظفين الفاسدين. ودعا في مجلس الشعب الوطني الأعضاء إلى التركيز على «عطاء أكثر وأخذ أقل» في كل ما يتعلق بفلاحي الصين. وسجلت تقارير الإعلام الرسمي التقدم. فقبل إن دخل المزارعين قد ارتفع حوالي 5 بالمائة من سنة 2003م إلى سنة 2004م. وليس ثمة سبيل لمعرفة دقة ذلك الرقم.

غير أن الإصلاحات الريفية، مهما بلغ طموحها، لا تستطيع أن تقلب مزارع الصين الصغيرة إلى محرك نمو للصناعة الصينية. فمعظم ظروف مناطق الصين الريفية مُرعبة، وما زالت إستراتيجية الحكومة الرئيسة لإنهاء فقر الريف تركز على إخراج الناس من المزارع. ولا يخفى هذا على أحد. فكثير من فلاحي الصين يعيشون اليوم كما كانوا يعيشون منذ قرون خلت، فيسكنون بيوتاً صنعوها بأنفسهم، ويأكلون على طاولات وكراس صنعت من الأشجار المحلية، ويعتمدون على الثيران وجاموس الماء، أو على أرجلهم، في الأعمال الزراعية الثقيلة. ويعيشون في قرى يزرعون فيها بأنفسهم معظم ما يستهلكونه، أو يحصلون عليه من جيرانهم. وإن الدخل الإضافي، الذي لا يزيد عن بضعة دولارات في السنة، يحصده أولئك الذين يمسون بالثعابين المتوحشة أو الطيور ويبيعونها. ويأتي معظم المال من بعض أفراد الأسرة الذين غادروا الريف، ويرسلون مالاً عندما يجدون عملاً في مكان آخر.

### اقتراض الوقت لشراء المستقبل

وإذ يرحل المهاجرون إلى الحاضرات الأكبر والمُدن، فإنهم يواجهون كثيراً من مخن الاستغلال، والتمييز، والخوف. ويُرى القادمون الجدد بأعداد كبيرة في محطة القطار في بكين، بعد أن قطعوا مئات الأميال أو الألوف، جالسين على مقاعد خشبية أو واقفين. فأرخص تذكرة سفر بالقطار تقطع نصف طول الصين تكلف 10 دولارات، وربما كان ذلك كل ما جمعته عائلة المهاجر في

بضعة شهور. ويصير الهواء داخل القطار في الرحلات الطويلة خليطاً عفناً وردياً جداً من الأحياء البشرية، والطعام المقلي الرخيص، والفواكه الناضجة حتى الفساد. وتجد الركاب، المزدحمون، والقلقون، والمنهكون، يغطون في إغفاءة موجعة. وإذ تحمل القطارات المهاجرين بعيداً عن بيوتهم، فإنها قد تصل بهم إلى أماكن غدارية. فمن بين الأخطار التي نواجههم، عصابات هناك جوالاً يرى منها المهاجرون أسوأ معاملة؛ فتُسرق نقودهم قتل أو كُتِرت. وتُجردهم شرطة القطار، شركاء اللصوص، إذا هم اشتكوا من اللصوص، فتَجَرَّدهم الشرطة مما لم يأخذه اللصوص منهم. وعندما يغادر المهاجرون القطار يخرجون إلى عالم يتوقعون أن يروا فيه سوء الاستغلال، ويأملون ألا يَشْتَدَّ فيه استغلالهم. ففي ساحة المحطة المعتمة يجلس النازحون والنازحات عن الريف قرب متاعهم الذي حَزَموه بإحكام، ويتوجَّسون خيفةً مما حولهم مدَّعورين مُتَّعِبِينَ كلاجئي حرب. ويستقبلهم، إن حالفهم حظُّ، أقارب لهم أو أهل قريتهم من الذين سبقوهم إلى المدينة فيرشدونهم إلى عمل. ويعتمد القرويون على شبكاتهم الخاصة لتمويل هذه الرحلات ولتوطين أنفسهم في بلدات كبيرة ومدن. أما السيد لي وزوجُه، صاحباً المتجر في شنغهاي اللذان ذكرناهما في الفصل السابق، فقد أتت النقود إليهما من مرابٍ في البلدة يعمل عمل مصرف لقرويين يغامرون بالخروج. وقد وصفه الزوجان لي فقالا: إنَّه أغنى رجل في بلديهما، وقالا: إنه لا يستثمر ماله فقط. فالمرابي يجمع المال من قرويين آخرين يريدون نصيبهم من حركة المدينة ولكنهم لا يستطيعون الرحيل إلى المدينة بأنفسهم. فالشروط قاسية. ونسب الفائدة عالية بالمقاييس الصينية، غير أنها أدنى كثيراً من نسب الفائدة على محتالي القروض في شوارع نيويورك. إذ بعضهم يدفع 12 % في السنة، على أن يسد أصل المال في سنتين أو ثلاثة، وربما يحتم ذلك جولةً أخرى من تمويل غير رسمي.

أما معظم الأسر في الصين، فيأخذ المال عندهم شكلاً واحداً: نقداً. إن حماية المال وإخفائه هاجس الجميع؛ في الفراش، والأجران، والخزائن الحديدية

الصغيرة، وفي حفر في الأرض أكثر أمناً من الخزائن الحديدية. ويخبأ المال أثناء السفر في الأحذية، والجوارب، والأحزمة المصنوعة يدوياً، ويشكل الأمن هاجساً لمقرضي المال، الذين يبنون أحياناً أبنيتهم الخاصة التي تشبه المصارف لإدارة نقودهم، ثم يسمونها اسماً آخر. سافرت كلي تساي Kellee Tsai، المختصة بعلم السياسة في جامعة جونز هوبكنز John Hopkins University والمحللة السابقة لدى مورجان ستانلي Morgan Stanley، في البلاد تستجوب ملاك مصارف الأزقة الخلفية، والمتعهدين الكبار والصغار عن دورهم في سوق البلاد الخاصة. فوجدت واحداً من أولئك المرابين الذي كان يقوم بإجراء أعماله من خلال «نادي المطالعة» الخاص به.

كان إقراض الأعمال التجارية الخاصة حتى وقت قريب، عملاً غير قانوني في الصين، وإن حجم شبكة التمويل غير الرسمية ينافس الأنظمة المصرفية في دول أخرى. وهذا إنجاز كبير عندما تتخلى الدولة عن دورها في تزويد الناس سنة 1978م، فقد أرسى 30 مليون عمل جذوره في الصين، كان معظمها بحاجة إلى رأس مال يبدأ به.

كيف كان ذلك؟ يقول تساي Tsai: إن من أبرز ملامح شبكات الإقراض الخاص في الصين أنها لم تكن تملك قوة التنفيذ القانوني. ولما كانت أرض الصين تملكها الدولة فقط وليس زارعوها، فلم يستطع المقترضون تقديم أملاك ضمانةً للقرض، وإنما كانوا يخاطرون برأس مال أسرهم الاجتماعي، وإذا كان المقرضون قساة فإنهم يرهنون صحتهم وسلامتهم.

وكثيراً ما يقامر المهاجرون على دكاكين صغيرة، كدكاكين التنظيف على البخار في ظلال المباني المرتفعة الجديدة في زوجيا هوي Xujiahui، وهي ضاحية سريعة التغيير على تخوم شنغهاي تشبه وسط مانهاتان، ووسط يشبه ساحة تايمز Times Square. وتتألف دكان التنظيف من غرفتين في شريط مُتداع يرتكز على الشارع. وتقتسم البناء أعمالاً أخرى منخفضة الإيجار، منها حجرات

للطعام وضعت أمامها غلايات من الخيزران متعددة الطبقات بحجم برمبل رفعت فوق ماء يغلي ليلاً ونهاراً، ودكان لإصلاح الدراجات، وقاطع زجاج.

أما الأُسرةُ هناك، فَسُنُسَمِيها أُسرةُ تشنس Chens، وصلت إليها سنة 2000م من قرية في إقليم شاندونج Shandong لا تملك قَطْميراً. عمل السيد تشنس وزوجه في أعمال خدمات في سنتهما الأولى، ثم قَدَّمَ لهما تاجر من شنغهاي عرضاً لِيَبِيعَهُمَا آلَةً يَسْتَعْمَلُها في التتظيف بالطريقة التقليدية على البخار. فإذا استطاع الزوجان تسديد دفعة مقدمة، فإنهما سيُسددان ما يبقى من ثمنها من رَيِّعِ عَمَلِهِما في التتظيف.

وَرَجَعَ الزوجان إلى قريتهما واتصلا بمقرض المال (المرابي) مقابل رأس مال البذار. ولِرابي القرية هناك تاريخ مع المهاجرين. فقد لقيت أول موجة من القروض نهاية غير سعيدة. فقد اعتمدوا في ذلك الوقت على الضغوط الاجتماعية التقليدية للمجتمع الصيني، حيث الأسر والأفراد يعملون جاهدين للحفاظ على علاقات طيبة ضمن شبكة واسعة من الأقارب، والجيران، وآخرين ارتبطوا بهم في المدرسة، أو العمل، أو من خلال أصدقاء. وإن الحفاظ على علاقات العمل ضروري للحياة المحلية، حيث يعمل الصينيون لبناء «وجه» يحافظون عليه ويعرضونه، هو مزيج من النيات الطيبة، والسمعة الحسنة، ورسائل صغيرة تساعد في تحديد مكان الفرد في المجتمع. فعندما يكون التفاعل محلياً تكون الحاجة المشتركة للحفاظ على ماء الوجه آلية فرض عالية الفعالية ضد كسر الوعود أو المخاتلة. وعندما أقرض المال في البداية للمهاجرين، كانوا يغيبون في مجاهل المدن الصينية الكبرى وسكانها العائمين، دون أن يخلفوا وراءهم مرجعاً للمقرض، الذي لم يكن لديه من ملاذ يُذكَر لمتابعة الديون الهالكة، أو اتخاذ إجراءات تلزم دفع الدين.

وللتكيف مع الحقائق الجديدة، صارت القروض تمنح لأفراد الأسرة الباقين فقط، الذين يمكن تحميلهم المسؤولية. وهكذا كان الأمر لأسرة تشنس. كان

الزوجان يعلمان أن المرابي سوف يطالب أسرتهما، وأن الاستكفاف عن التسديد سيقابل بضغط قاسية. وتأخذ المطالبة شكل زيارات ليلية يقوم بها الجباة، الذين يقل لطفهم مرة بعد أخرى. وكان المرابون الذين ينتظرون تسديد الدفعات المتأخرة في قريتهم يذهبون إلى بيوت أسرة مدينيهم، ويرفضون مغادرتها ويطالبون أصحابها بالطعام والشراب والمبيت حتى يسدد القرض. وكانت هذه الطرق مجدية تماماً، وكانت دافعاً قوياً للمهاجرين لقبول أي عمل يريح أسرهم من أعبائهم المالية. إنهم يغادرون البلدة تدفعهم حوافز مستمرة.

وتعمل الأهمية المالية للهجرة في الأسر الريفية في الصين في اتجاهين. إذ يستطيع الفلاحون الاستثمار في ثروات الآخرين إن هم دخلوا مجال الإقراض الذي يملأ جيوب المهاجرين. وكسب مزيد من المال يمكنهم من تحسين حال بيوتهم الريفية، والاستثمار في مزارعهم، أو إقامة أعمال تجارية محلية، غير أن الأفضل دائماً أن تجد سبيلاً بطرق باب اقتصاد المدينة الغني مباشرة. ويعني ذلك إرسال أفراد من الأسرة سعياً لتحصيل الرزق (وهم ثلاثة أو أربعة مهاجرين من الذكور). وقد تكون الكلفة المباشرة باهظة، حيث يكون الشخص الذي يقع عليه الاختيار للهجرة هو الذي يعتمد عليه أهل بيته أكثر من سواه. فكانت الأسرة تضطر للعيش دون ما يكسبه ابنها هذا حتى يُمكن موقعه في المدينة. ويكون الوقت الذي يمضيه المهاجر بعيداً مثل السعر المرتفع للموارد المالية في سوق الاعتمادات الريفية.

ولا تلجأ الأسر إلى الاعتماد على أعضاء ضعفاء في هذا النظام، فالمجازفة شأنها هنا عظيم. وشق الطريق صعوداً إلى وحدات التصنيع البسيطة، والمناجم، ومقالع الحجارة، وأشغال الطرق أو أعمال البناء يحمل أخطاراً كبيرة. وسجلت الإحصاءات الرسمية حوادث صناعية كان يُقتل فيها حوالي 350 شخصاً في اليوم الواحد. فالعمل الشاق يتطلب عمالاً مناسبين. والمهاجرون الصينيون هم زبدة البلاد، إنهم أشخاص في ربيع سنوات كسبهم، أمضوا، وسطياً، سنتين

ونصف من التعليم المدرسي أكثر من العمال الزراعيين العاديين، ويصغرونهم بعشر سنوات. وهكذا، فإن إرسال شخص للعمل بعيداً يأتي أكله، وفي كثير من الحالات يزيد دخل البيوت الريفية بين 14 و 30%. غير أن ذلك لن يُغني مُعظم الأسر الريفية، وإنما هو أفضل من عيش الكفاف بدخل ضئيل إضافي. وقد يوفر ثياباً إضافية، وجهاز تلفزيون، أو ربما بيتاً جديداً للدجاج. ويتعلم المهاجرون مهارات ومعارف قد تكون أثمن من المال الذي يكسبونه في المدينة. فيحصلون بها على مواقع عمل أفضل ويبدوون أعمالهم الخاصة.

### لأبد من قرية للفوز بحصة في السوق العالمية

شكلت شبكة التمويل الخاص نزوعاً آخر نحو التمدن. فقد قلبت مناطق ريفية أو شبه ريفية معينة إلى محاور صناعية. ففي مقاطعة زيجيانج Zhejiang على سبيل المثال، نجد أن 90% من التجارة خاصة، وهي نسبة تفوق النسبة في أي مقاطعة صينية أخرى. ولعل الأهم هو أن الأعمال التجارية المحلية في زيجيانج بدأت كلها تقريباً برأسمال بذار الحبوب قدمته شبكات الإقراض المحلية. براد هوانج Brad Huang مواطن من المقاطعة، تخرج من كلية الإدارة في جامعة ييل Yale School of Management، وعمل في مصرف كريدي سويس Credit Suisse، يدير الآن لوئس كابيتال Lotus Capital، وهو صندوق استثمار يشترى حصصاً في أعمال خاصة في الصين. قال إن نجاح زيجيانج جاء من بدايتها بداية فقيرة جداً. كانت زيجيانج تتلقى إعانة من أخفض نسب المساعدات الحكومية بين المحافظات الصينية، مما ترك سكانها، وأغلبهم ريفيون، أكثر عوزاً وحرماناً في الصين. وعندما بدأ التحرر هاجر كثير من أبناء زيجيانج إلى مدن الصين الكبرى. وثمة كثيرون آخرون، كانت انطلاقتهم في موطنهم، فأمسكوا بسرعة وحماسة فرصة أعمالهم التجارية الخاصة.

وتصطف الآن جميع أنواع المصانع على أطراف الحقول القديمة في المقاطعة. فإذا حطت طائرتك في أحد مطارات زيجيانج الصغيرة الكثيرة، فإنك لن ترى إعلانات اعتدت أن تراها للمسافرين. كالألوان البراقة من السجائر، والهواتف الجواله، والكاميرات الرقمية، وإنما تملأ جدران مطارات زيجيانج إعلانات عن مثاقب الضغط، وآلات سَبْك البلاستيك، وآلات الخراطة الصناعية. فَتَحْيِيكَ اليوم شركات الصين الخاصة الناجحة، وَيُحْيِيكَ أغنى أفراد المقاطعة.

ولعل المنطقة المدهشة أكثر في زيجيانج هي ونزّهو Wenzhou، فجزء منها مدينة وجزؤها الآخر ريف، وكلها قوة اقتصادية. تقع المنطقة على الجانب الآخر من مضيق تايوان مقابل 22 مليون شخص تايواني، وكانت ونزّهو في السنوات الثلاثين الأولى بعد الثورة، أرضاً حدودية تقسم جمهورية الصين الشعبية عن جمهورية الصين الأصغر. ومازال للطائرات المقاتلة والجنود الذين يحملون الأسلحة الرشاشة، حتى اليوم، حضور دائم في مطارات ونزّهو. وكذلك دَفَّقُ من رجال الأعمال التايوانيين. وقد أَهَمَّتْ الحكومة اقتصاد ونزّهو إهمالاً شديداً أثناء الفترة التي طُوِّرت فيها الصناعة في مناطق ظَنُّها ماو أنها ستكون في منأى عن مهاجمين أجنبي.

وتَحْتَضِنُ الجبال ونزّهو مما يجعل بناء الطرقات والسكك الحديدية عسيراً. إذ تتقاطع السكك الحديدية على معظم الشاطئ الشرقي للصين، غير أن أول خط قطار لم يصل إلى ونزّهو حتى أواخر سنة 1992م. ولم يتجاوز استثمار الحكومة الصينية فيها بين سنة 1949م و1981م مبلغاً زهيداً هو 80 مليون دولاراً، أي بمعدل 2.5 مليون دولار في السنة. وهذا رقم ضئيل جداً، إذ كانت الحكومة تسيطر رسمياً على جميع الفعاليات الاقتصادية، وقد ارتفع عدد سكان ونزّهو في تلك الفترة من 4 ملايين إلى 7 ملايين، أي أن الفرد في تلك المنطقة كان يتلقى أقل من دولار واحد في السنة. وبرغم نضالها كأرض محرومة، فإن المساحة المخصصة لمزارعي ونزّهو كانت أقل من ثلث المعدل الوطني، وكانت الأرض أقرب إلى البور.

وبالرغم من ذلك الحرمان، فقد أخرجت هذه الأرض المهمشة نماذج رسمت مصير اقتصاد الصين.

كيف؟ فمثلاً كان حال المزارعين الثمانية عشرة المشهورين الذين اتفقوا على إدارة أعمالهم التجارية الخاصة بعيداً عن التعاون الريفي، فقد اضطر المقاولون الصينيون الناشئون إلى اتخاذ قرار بخرق القانون. كان البدء بعمل تجاري خاص في الصين أمراً غير قانوني. ومثل بقية الأعمال التجارية غير القانونية التي تزدهر برغم القانون، فقد كان لا بد من مزيج من الإرادة، والحكمة السياسية، والفطنة، والاستعداد للالتزام بقواعد النظام بأي سبيل ممكن، بالاعتماد على السريّة، والرشوة، والبراعة مع القانون على نحو يُعيد صياغة ما يعد مغامرات غير قانونية فيصنفها أعمالاً تجارية تتسجم مع بعض الصيغ القانونية التي يقبلها المعنيون بمراقبة الاقتصاد المحلي. أما عمل الأجانب الذين يقومون بنشاط تجاري في الصين، أو ينافسون الأعمال الصينية، فقد كانت نظرة التجارة الصينية للاتفاقيات، واستخفافها الواضح بالشرعية، من أكثر الأمور إثارة. غير أن التجارة الصينية نمت في بيئة كان الخروج عن القانون هو الخيار الوحيد المتاح فيها. فقد نما القطاع الخاص الناشئ كله نمواً متفجراً تحت أنواع القيود ذاتها التي واجهها المهربون الأمريكيون وأصحاب الحانات أثناء تحريم بيع المسكرات.

وبدأت الأعمال التجارية الخاصة في ونزّهو تأخذ شكلها قبل أن يبدأ دنج زياوبنج بالإصلاح رسمياً، غير أن القائد الأعلى لمس قيمتها وامتدح المنطقة برغم أنها كانت رسمياً مرتعاً للجرائم ضد دولة الشعب. وهكذا وُلِدَ الاقتصاد الخاص بتغاضي الحكومة المركزية وإيمائها. واحتُفي بمقاولي ونزّهو، مثل المزارعين الثماني عشرة المشهورين، لتعاملهم مع قوانين الصين وأنظمتها كما لو أنها كانت كلها خاطئة. وكثيراً ما نسب إلى دنج قوله: «ليس مهماً أن تكون القطة سوداء أم بيضاء، طالما أنها تصطاد الفئران». التي قالها أثناء مناقشات

سياسية في ستينيات القرن العشرين، وتُذكرُ الآن في معرض الحديث عن فشل السياسات الاقتصادية الشيوعية القديمة، التي لم تستطع أن تصطاد الفئران، والسياسات الجديدة التي منَحَت الناسَ رخصاً تركّز على الغايات بغض النظر عن الوسائل.

وما إن سُمِحَ لأهالي البيوت الريفية بدخول مجال التجارة، حتى سَرت المقاولات مَسرى النار في الهشيم. وأُنشئت أعمال تجارية في تسعة من عشرة بيوت، وفي خمسة سنوات قصيرة في بعض القرى في المنطقة، أُسست فيها 80.000 أسرة بعض العمليات الصناعية الصغيرة، وكانت 110.000 أسرة قد فعلت ذلك بحلول سنة 1986م. وكان القانون يمنع أن تصبح الأعمال التجارية كبيرة؛ فكان توظيف أكثر من خمسة أشخاص يجلب اهتمام السلطات فوراً، وكان لديها سلطة إغلاق المشاريع الأكبر. وبرغم ذلك فقد كان فلاحو ونزّهو، في سنة 1986م يوظفون ثلاثمائة ألف عامل، فأبعدوا بذلك عن المزرعة أول المئات عن ملايين المهاجرين الريفيين - فيما بعد - بحثاً عن عمل أفضل.

وكانت جميع هذه الأعمال التجارية بحاجة إلى مال كي تنطلق وتجري. وعلى خلاف كثير من البقاع التي ستشهد الازدهار في الصين، فقد مولت المنطقة بذاتها الازدهار الأول في زيجيانج، وكان منها ونزّهو، دون الحاجة إلى مال أجنبي يساعد في انطلاقها. وللتحايل على الأنظمة التي تمنع تقديم القروض لشركات خاصة، لجأت الأعمال التجارية المحلية مرة ثانية إلى شبكات تمويلها الخاصة، وقد نما بعضها منذ ذلك الوقت لتصبح من المؤسسات المالية الأكثر قوة في الصين الحديثة، وهي قادرة اليوم على جمع مئات ملايين الدولارات لإقامة مصانع عملاقة، وطرق خاصة يدفعُ سالكوها رُسوماً، وأي مشروع لو كان في مكان آخر في الصين لاحتاج إلى رأس مال من أحد مصارف الدولة، أو إحدى شركات الدولة ذات الصلات الجيدة، أو مصدر تجاري أجنبي.

وابتدعت قرى الفلاحين في وَزَهو جميع أنواع البُنَى المتحدة البارعة لكسب الوضع القانوني الذي لا بد منه للحصول على المال دون استعانة بمحام من وول ستريت، أو من لندن. وكانت إحدى هذه البُنَى «المشروع المنزلي المتماusk» حيث تحولت الشركة العائلية إلى فرع من مشروع تابع للدولة. ويستطيع المشروع المنزلي أن يغطي نفسه باسم الشركة التي تملكها الدولة، من خلال ترتيب مع إدارة الشركة الأكبر، وأوراقها، وأرقام حساباتها المصرفية. ولم يُؤدِّ ذلك إلى جعل الشركة في وضع يُمكنُها من الحصول على القروض من مقرضي الدولة فحسب، وإنما حرَّرها من دفع الضرائب. وقد كانت التعاونيات الحكومية أيضاً في اللعبة، في شراكة مع الشركات المنزلية بطرق مماثلة. وإذا اتَّخَذت الأعمال التجارية هذه الأشكال الجديدة فقد وَرَّطت بُنية السلطة الشيوعية المحلية في اندفاعها نحو السوق. ونَمَت الأعمال التجارية الهجينة ليُصبح اسمها مشروعات «قبة حمراء». ويشير كِلي تَساي Kellee Tsai إلى أن أصحاب كثير من التعاونيات المزَيَّفَة كانوا من الكوادر، ومن المسؤولين الحزبيين المعنيين بإدارة المزارع أو التجارة تحت رعاية الدولة. حتى شَجَّعت الحكومة المسؤولين المحليين على الانخراط قدر ما يستطيعون. فإذا كان القصد من ذلك أن يصبحوا شركاء في المشروع، والإثراء في الصَّفقة، فليكن.

وكان الشيوعيون الصينيون، المشبعون بماركس وأفكاره، يعرفون أن المراحل الأولى من تكديس رأس المال في اقتصاد سوق في مرحلة التكوين لا بد أن تسودها الفوضى. لقد كان في أوروبا قراصنة، وكان في أمريكا بارونات السرقة، وكان في كورية زايباتسو Zaibatsus وشييبول Chaebols الاندماج المتكامل اللطيف للمصارف والصناعة والسياسيين والعسكريين، وجميعهم مُسْتَعِدِّ لِحَكِّ ظهور بعضهم وإخفاء أخطاء بعضهم بعضاً. وصار تَدَاخُل المصالح بين المقاتل الخاص والمسؤول في السلطة أمراً عادياً في الصين. ويمكن أن يعمل بطرق شَتَّى لا تُعدُّ ولا تُحصَى، بعضها تعاوني جداً وبعضها الآخر قسري جداً. أما زيروي

تيان Zirui Tian فهو مهندس صار باحثاً اقتصادياً في جامعة بكين وإنستيد INSTEAD، كلية التجارة الفرنسية، فيقول: «إن أحد البراهين على عبقرية رجل الأعمال الصيني هي أنه يستطيع النجاح في نظام يضم هذا العدد الكبير من القيود».

وساعدت العملية، مع مرور الوقت، في ربط مصالح مجموعات في الصين لم تكن متحالفة تاريخياً. فقد كانت هناك طبقة وسطى وطبقة تجارية طموحة تحتاج إلى المال وحقوق الملكية كي تقوم بعملها التجاري، وكانت هناك الدولة ومسؤولو الحزب الذين كانوا موجهين أيديولوجياً ضد الأعمال التجارية والملكية الخاصة. أما المنظمون، فإن مصالح المسؤولين معقدة ومتناقضة حتى إن شدَّ زمام القطاع الخاص على أي جبهة سيصطدم أيضاً بمصائر أولئك الذين يديرون الدولة.

ولو تمكن النظام من التخلص من إرث عدم الالتزام بالقوانين والالتفاف عليها، فإن أثره على تعامل العالم مع الصين تجارياً سيبقى إلى مستمراً دائماً. فإذا بقي نظام الرشاوى والشككات وحك الظهور (تبادل رعاية المصالح) في البلاد لعقود قادمة، فسيكون له نفوذ قوي على الشركات التي تدخل السوق، التي ستطالب، في أقل تقدير، بإطلاق يدها للتعامل مع السوق الصينية كما يتعامل أصحاب الأعمال الصينيين معها.

### اعبر النهر بتحسس الحصى

وعندما تولى دنج زياوبنج DengZiaoping الإشراف على الاقتصاد سنة 1978م وانتقل الحزب الشيوعي إلى تصحيح أخطاء الماضي الأيديولوجية، ومنها أخطاء ماو وعصابة الماويين الأربعة Mao and the Maoist Gang of Four. كانت هذه التغييرات مؤشراً إلى مرحلة من القيادة العملية. أهاب دنج بمتقفي الصين، الذين كانوا موضع سخرية وأذى أثناء الثورة الثقافية التي انتهت، المساعدة في معالجة مشكلات البلاد الاجتماعية والاقتصادية. وأنهت

الصين تحت قيادة دنج أيضاً النضال الطبقي ولم تُعَدُّ تُشَهَّرُ بالطبقة العليا، التي ستتشكّل سِراعاً من جديد. وطُبِّقَت إصلاحات دنج الجريئة وتغييراته بقواعد شديدة من المحافظة. فرصد الحزب التغييرات الاقتصادية التي تمت تحت رقابته عن كثب، وتقدم المثقفون لدعم الإصلاح.

وأثبتت الحرية الاقتصادية التي تمتع بها المزارعون نجاحها العظيم. فقد استولت على المزارعين حُمى المقاتلة، وانطلق الملايين بحثاً عن أفكار تجارية تدعم دخلهم الزهيد من الزراعة.

إن الصعوبة كبيرة في اتخاذ قرار عن عمل يختار المرء أن يعمله في اقتصاد ناضج حيث يعيش مع خيارات واسعة. غير أن مجال الاختيار كان محدوداً جداً أمام المزارعين الصينيين. حيث يمكنهم استحضار ذكريات أعمال تجارية قبل أن تتولى الشيوعية الصينية البلاد، وبرغم ذلك، فقد كان الريف فقيراً وبعيداً جداً عن التنوع الأغنى للمدن الصينية، وعندما تبرز أفكار جيدة، أصابت المزارعين حُمى المقاتلة، وانطلقت الحشود بحثاً عن أفكار تجارية مزدهرة تدعم دخلهم الزهيد من الزراعة تُقْتَبَسُ بسرعة تجعل أي عمل رابح يعج بالمنافسين. وكانت الصناعات الجديدة تنطلق لتلبي الطلب الواسع على الحاجات الضرورية اليومية كالتياب، والمؤن المنزلية، والمكانس، والفراشي، وأدوات المطبخ.

تحرك مزارعو ونَزَّهوا سِراعاً ليمسكوا بميزة سوقهم على نظام التوزيع الجامد الذي تديره الدولة، فأرسلوا عدداً من مندوبي المبيعات إلى جميع أرجاء الصين ليروجوا بضاعتهم. وقد نما قسم جديد كامل من البلدة في بكين سُمِّيَ قرية زيجيانج، حيث تجمع المهاجرون من المقاطعة، ومعظمهم من الرجال، في جيتو صنعوه بأنفسهم. وبرغم أن أوائل القادمين كانوا أغنى من أهالي بكين، غير أن سكان العاصمة جمعوهم معاً وعدّوهم «رعاع الريف». وقد هدّمت الحكومة مرّة القرية، وذلك أسلوب واجه استعداد الجنوبيين الجريء للالتفاف على القانون.

وسرعان ما بوشر ببناء قرية زيجيانج جديدة وأصبح الرجال الذين غادروا المنطقة لبيعوا بضاعتهم في أنحاء البلاد يعرفون بالمغامرين الجنسيين. وقد صور الذين خارج المقاطعة رجال أعمال زيجيانج تصويراً كاريكاتورياً على شكل فلاح غني مغرور يجوس خلال البلاد بحثاً عن فريسة. وأثار مقالو زيجيانج غيرة مواطنيهم، مما حثّ كثيرين على طلب ما يمتلكه المختالون.

كانت ونّزهو وزيجيانج خير مثالين يُدرّسان عن إصلاحيي الصين. كان دنج يؤمن إيماناً راسخاً بأن التنمية الاقتصادية تتطلب خطوات مدروسة وتجارب محلية. عندئذ يمكن تعميم الإصلاحات الناتجة في كل البلاد. وهذا يناقض إصلاح السوق الذي اختارته أوروبا الشرقية لنفسها عندما تداعت الشيوعية هناك، فكان له فعل الحّمّام البارد المفاجئ. غير أن زيجيانج كانت تحتاج إلى قليل من التشجيع كي تبدأ تجاربها الخاصة، وعندما حاول بعض المسؤولين الحكوميين إعاقة ازدهارها، طفت عليهم ديناميكية المقاطعة. وقد شجع قول دنج الشهير «اعْبُرْ النهرَ بِتَحَسُّسِ الحَصَى» الصينيين على تَلْمُسِ طريقتهم بحذر وشيئاً فشيئاً عندما ينتقلون نحو حياة أفضل. لقد تحسّس قرويو زيجيانج وسكان ونّزهو الحصى، وإنما فعلوا ذلك وهم يركضون.

وهكذا ألقى مزارعو الصين في خِصَمِ المنافسة في مرحلة الإصلاح، حيث اندفع مئات أو ألوف من المتنافسين المحليين إلى التجارة نفسها. وكثيراً ما يُمجّد الصينيون قِيَمَهُمُ الثقافية التي تجعلهم أصحاب أعمال بالفطرة. ويُعجّب الأجنبي باقتصادهم في النفقات، وقدرتهم على العمل الشاق، وإدارتهم فريق عمل بنجاح. فالثقافة تكوّن مكان العمل في كل الدنيا، أما في الصين فقد أدّى انبعاث رأس المال فيهم، والتنافس الحاد إلى تكوين ثقافة خاصة فرضت الكدّ والكفاءة مما كان نادراً في ظل الزراعة التعاونية.

## مصنع للأحزمة الجلدية يغلق في مَسْتَشْسِتْس Massachusetts بينما تفتح ألوف المصانع في الصين

كان مِرل واينجرُد Merrill Weingrod، مدير استراتيجيات الصين في China Strategies في مدينة بروفدَنس Providence، في ولاية رود آيلاند Rhode Island، يدير أعمالاً تجارية في آسيا الصينية Chinese Asia - أولاً في هونج كونج، ثم في تايوان، وعاد إلى العمل في الصين منذ أوائل سبعينيات القرن العشرين. ويقدم واينجرُد الآن استشارات لشركات أمريكية وأوروبية تبحث في نقل صناعتها إلى الصين، أو في إنشاء شبكات بيع في البلاد. غير أن عمله في سنواته العشرين الأولى كان في شركته الخاصة، التي كانت واحدة من الشركات الأمريكية الرائدة في صناعة الأحزمة الجلدية.

أغلق واينجرُد مصنعه في مَسْتَشْسِتْس في نهاية الثمانينات وأقام، بدلاً عنه، علاقات مع مصنعين صينيين. ولطالما اشتهرت الصين بتجارة المصنوعات الجلدية حتى في الفترات الشيوعية الأكثر جموداً. وكانت الدولة تدير دَبَّات ضخمة جداً. ففي الصين أقدام كثيرة يلزمها أحذية. وقد أدرك واينجرُد في وقت مبكر أن القوى العاملة الصينية ستقضي على صناعته، فجال في البلاد ليصنف المصنِّعين الذين ينهجون مقاييس المصانع الآسيوية الأخرى، وإنما بأسعار أقل.

كان واينجرُد يزور مصانع الجلد والأحزمة في منطقة ونزُهو الريفية عندما تبين له أمر. يقول واينجرُد: «كانت اللحظة التي أدركت فيها استحالة منافسة الصينيين عندما زرت مصنع ونزُهو الذي يعالج جلد الحيوان».

ويذكر أنه دخل كوخاً مستديراً سقفه صفيح فيه طاولات ومِثَّتَا عامل. كان الرجال الحُفَاة فيه منحنية أصلابهم على أسوأ جلد رآه في حياته، إنها طبقات رقيقة من جلد الحيوان المهترىء المليء بالثقوب». كان هذا النوع من الجلد يُرمى تلفاً في أي مصنع جلد في أي مكان آخر من العالم». غير أن الأشياء التي لا

قيمة لها في مكان آخر قد يكون لها قيمة كبيرة في الصين، حيث اليد العاملة رخيصة جداً. كان العمال الذين يتفحصون جلد الحيوان في مصنع الأحزمة الصيني يسدّون كلَّ ثقب صغير في الجلد واحداً بعد آخر، فيقصّون قطعاً صغيرة من الجلد التالف تملأ كلَّ ثقب. ويشطفون حواف الرقع الصغيرة باليد بواسطة سكين، ثم يشطفون حواف الثقب باتجاه مناسب ويرتقون الرقعة. كان عملهم وكأن صاحب العمل قرر أن يكون الجبن السويسري كثير الثقوب أملساً فاستأجر عمالاً ليقصّوا رتقاً لتلائم حجم كل ثقب. فوجئوا وابتعدوا إذ يقول: «لا يمكن أن تفعل هذا إلا في الصين». فالأحزمة التي تنتج من جلد أُعيد تشكيله تُباع في المخازن الصينية بأقل من دولار، وليس ثمّة من يستطيع كسر هذا السعر.

وبرغم شبكة الاتصالات الواسعة في الصناعة، فلم يكن واينجُرد يعرف أن صناعة الأحزمة كان هذا حجمها في ونزّهو، قال: «أذكر أنني ذهبت إلى السوق حيث تبيع شركات الجلد والأحزمة منتجاتها، ولم أر شيئاً قطُّ كهذا. كان بناءً مساحته مثل مساحة ملعب كرة قدم، يضم ثمانمئة كشك يُشرف عليها بائعو السلعة ذاتها».

وأغلق واينجُرد مصنعه في مَسْتَشْسِيس حيث كان يعمل فيه مثناً عاملاً، وأعاد ابتكار عمله في الأحزمة بما يلائم التحوّل الحتمي باتجاه الصين. وسيكون أداؤه أفضل كوسيط بين البائع الأمريكي والمصنع الصيني مما لو أنه استمر في مصنعه الأمريكي. ومن أسباب ذلك أن باعة التجزئة الأمريكيين والأوروبيين واليابانيين كانوا مُصممين على شق طريقهم نحو الصين ومُدّخراتها الواعدة.

ويقول واينجُرد إن عدد مصانع الأحزمة النسائية الأنيقة، متوسطي الحجم، في الولايات المتحدة التي يزيد عدد العاملين فيها على خمسة وعشرين عاملاً لم يكن يتجاوز ستين مصنعاً في أواخر التسعينيات. وصار عدد المصانع من ذلك النوع أكثر من مئة وخمسين مصنعاً ضمن دائرة نصف قطرها عشرة أميال حول ونزّهو سنة 1999م.

كانت صناعة السلع الجلدية إحدى المجالات التي طغت الصين فيها على منافسيها في العالم باقتحام قوي في سوق لم يكن لها فيه حضور يُذكر من قَبْل. أما الآن، فإن مصانع الجلد الصينية تُزوّد العالم بكمية من الجلد لصناعة الأحذية والثياب أكثر من أي بلد آخر. فستة آلاف شركة سلع جلدية تُعالج 460 مليون قطعة جلد حيوان مدبوغ، وخمسة بلايين زوج من الأحذية، و70 مليون قطعة ثياب جلدية في السنة.

وتشكل الأحزمة فرعاً من صناعة الأحذية، وتحتل ونزّهو المرتبة الثانية في إنتاج الأحذية في العالم بعد مقاطعة جوانجدنج Guangdong في جنوب الصين، التي تنتج 175 مليون زوج من الأحذية شهرياً، ومنها أحذية لمعظم الماركات الغربية المشهورة، وقد تخصصت في تزويد الأسواق الأقل غنى. فستين بالمئة من صادرات أحذيتها يذهب الآن إلى أوروبا الشرقية ودول الاتحاد السوفيتي سابقاً. ويقول واينجرد: «إن كل هذا قد نشأ من عدم».

وتكتظُّ زيجيانج وراء ونزّهو بمناطق تركز على الصناعة ذاتها. وتعد هونج دونجيانج Hong Dongyang رمز تلك المقاطعة. وهي مقاولة لها قصة معروفة في الصين. كانت هونج مُدرّسة، بدأت بصناعة الجوارب في السبعينيات على آلة خياطة منزلية. كانت هونج تبيع الجوارب في البداية على الطرقات قرب منزلها. ففتحت كشكاً وأطلقت مشروعها البدائي، وسَمّته شركة جوارب زيجيانج. وما لبث كثيرون آخرون أن قلدوا شركة هونج للجوارب، وهي الأولى في المقاطعة. أما اليوم فقد غدت المقاطعة عاصمة للجوارب، فيها أكثر من ثمانية آلاف شركة تغزل ثمانية بلايين زوج من الجوارب في السنة، وهذا ثلث إمداد العالم.

إن التنافس مع المزارعين السابقين والصناعيين المنزليين ليس سهلاً. لقد ساعدت مصانع زيجيانج في جعل سوق الجوارب الأمريكي الأكثر تنافساً بين جميع الصناعات الأمريكية الإكسائية. فقد أنتج الصنّاع الصينيون 1% من

الجوارب التي يرتديها الأمريكيون سنة 2001م. وفضلت الجوارب الواردة من الصين إلى الولايات المتحدة في سنتين متتيتي ضعف، وتُشكل الآن 20% من السوق الأمريكية. وقد كان لحصّة السوق هذه أثراً غير متكافئ على فرص العمل الأمريكية. وقد قال سيد سميث Sid smith، الرئيس السابق لرابطة الجوارب والملابس المحبوكة لووكالة أسوشيتد برس Associated press: ليس من شك في أن الواردات قد أطاحت بعدد هائل من فرص العمل في صناعة الجوارب». وتساءل: «هل تشكل خمساً وسبعين في المئة من جميع فرص العمل؟ ربما، ومن يدري؟ ونجحت أربع مجموعات أمريكية تعمل في النسيج والتجارة في حزيران/ يونيه 2004م، في التماس تقدمت به إلى وزارة التجارة الأمريكية لتضرب حصة الجوارب المستوردة من الصين، غير أن الحصص الجديدة أبطأت نمو الصين داخل السوق الأمريكية فحسب.

وتبين أن الاستغناء عن الصنّاع الصينيين لم يعد ممكناً في تزويد شركات الجوارب الأمريكية الكبرى، الذين يحبون ما فعله مقاولو زيجيانج لسوقهم. إن جيم ويليامز Jim Williams رئيس شركة جولد تو براندس Gold Toe Brands Inc ومديرها التنفيذي، وهي شركة في برلينجتون Burlington، في شمال كارولينا North Carolina، التي تتحكم بنصف مخازن بيع جوارب الرجال في الولايات المتحدة. ويتباهى موقع جولد تو على شبكة الإنترنت أن «كل زوج من جوارب جولد تو يصنع بكل فخر بأيدي حرفية ماهرة ويفحص بدقة ليعطي المستهلك أجود جورب مُمكن». ولا يتطرق الموقع إلى القول إن هؤلاء الحرفيين قد يكونون من النساء المزارعات المهاجرات اللاتي يعملن بجد في مصانع الجوارب في زيجيانج.

وقد كتب ويليامز Williams أن «جميع أعضاء الكونجرس وكل من في الحكومة الأمريكية» يُعارض فرض حصص الاستيراد. وقال لووكالة أسوشيتد برس: «إن لديك فرصة للبحث عن مصدر لنوع أفضل وأسعار أفضل في العالم».

لم يكن الجلد، والأحذية، والجوارب سوى البداية في زيجيانج. أما الآن فقد صار للمدن في جميع أرجاء المقاطعة صناعاتها التي تهزم صناعات العالم. وتصنع إحدى المناطق بليوناً من الأزرار، وأغرقت منطقة أخرى العالم بلآلئ المياه الحلوة، وهناك مناطق تصنع الأدوات وولاعات السجاير. وسُميت ونزهو المزدهرة مدينة الأحذية الصينية، وعاصمة الأدوات الكهربائية، ومدينة الأقلام الصينية، ومدينة الأقفال الصينية، ومدينة الطباعة الصينية، وكانت في كل حال من الأحوال المذكورة منافساً عالمياً لا يُستهان به. فالأراضي التي لم تعد تبدو مدنية ولا ريفية، وإنما صارت مراكز لصناعاتها الخاصة. إذ يمرُّ أحد الشوارع عبر صَفٍّ من المصانع المتخصصة بصناعة مجاري تصريف الماء في الأحواض المنزلية، وأخرى لصناعة الصنابير الصناعية، وغيرها لصناعة أدوات التثبيت.

ويأتي الزبائن إلى هذه المصانع من أرجاء العالم، يبحثون عن أسعار محسومة جداً: صناديق كبيرة مثل وال مارت Wal-Mart، وكارفور الفرنسية Carre-four وتيسكو البريطانية Tesco مصنعون من جميع الحجم يبحثون عن قطع، وبخاصة الموزعون الذين يمدون السباكين، والبنائين، ومنشئي المدرجات المنزلية، وباعة الهدايا، التي تعادل الدولار ومخازن المئة ين في الجوار، وكل من ورد اسمه في دليل الصفحات الصفراء في العالم. هذه الصناعات هي التي يجب أن تضع نصب أعينها لمنافسة مصانع طوكيو واستكهولم وساوباولو وسنسناتي.

### سيأتون إليك إن بنيت المصانع

وبرغم أن زيجيانج مقاطعة صغيرة جداً بالمقاييس الصينية، غير أن لها فعل المغناطيس في جذب المهاجرين. فتسعة من كل مئة من عمال الصين الجوالين يذهب إليها بعضهم يأتي من هوبي Hubei الخضراء الجميلة. وتجد في بعض مناطق زيجيانج أن أكثر من ربع سكانها من الخارج، وقد أتى معظمهم لشغل أعمال منخفضة الأجر في المصانع المحلية. حيث يبلغ معدل الأجر في المصنع

حوالي أربعين سنناً في الساعة، وربما يكون أقل. وفي ضوء الأعداد المهاجرة واتجاهات الهجرة، فسيكون لمقاولي زيغيانج إمداداً وافراً من العمال المندفعين الذين يتقاضون أجراً منخفضاً لسنوات عديدة قادمة.

إن زيغيانج هي خير مثال لظاهرة تتكرر بتفاوت في أماكن أخرى من الصين. وتذكر كيت زياو زهاو Kate Xiao Zhou قولاً ريفياً تردّد كثيراً في سنوات الإصلاح الأولى للسوق، يجسد اتجاه رجال الأعمال الصينيين في تقليد صيغ الآخرين الناجحة، «بيت واحد يؤثر في قرية، وقرية تؤثر في منطقة، ولكل قرية مدخنة صناعية، وكل منزل يبعث الدخان». وتقول: إن القرى كثيراً ما كانت تنمو لتصبح مراكز وطنية لإنتاج منتجاتها الخاصة. غير أنها لم تكن تتخم أسواقها وتفشل ككل. ولم ترق المناطق لتسيطر على أسواقها لأنها حققت مستويات واسعة من الاقتصاد أو كان فيها بعض الحاملين، قلبوا صناعاتها، مثلما غير هنري فورد Henry Ford صناعة السيارات. لقد حققوا مواقع أسواقهم بتطبيق قاعدة القطيع مرات ومرات، معظمها في حدود ضيقة. وتشير زهاو إلى أن ثمانين ألف أسرة ريفية في مقاطعة زهاو Zhuo ومقاطعة هبي Hebei province أنشأوا عمليات بسيطة في الثمانينيات لإنتاج ثياب من الأكريليك وباعوا، مجتمعين، أكثر من 20 مليون قطعة ثياب في السنة، وكسبوا حوالي 100 مليون دولار. أما بلدة زيكيانو Xiqiao في جوانج دونج Guangdong فهي مركز اجتماعي كبير، بدأ عمالها عقب أول شعاع للإصلاح الاقتصادي بإقامة مصنع نسيج من ألفي كوخ، وهي الآن من أكبر مراكز صناعة النسيج في العالم، وتجلب العمال المهاجرين إلى أنوالها من جميع أرجاء الصين.

ولعل أكثر ما يُستغرب في أوجه التنمية الاقتصادية في الصين الوفرة المالية الكبيرة التي انتشرت في جميع أرجاء البلاد. ويبدو أن قطعان المقاولين الصينيين المقلدين سيتمكنون مع مرور الوقت من الاستيلاء على أي صناعة في العالم وسحبها إلى القوى العاملة الهائلة المستعدة للعمل في أي نوع من المصانع.

فكان الرأي التقليدي في التنمية الاقتصادية هو أنها تنتقل ببطء من الصناعات الزراعية إلى تجارة السلع التي لا تتطلب تكنولوجيا عالية، ثم ترتفع إلى صناعات أعلى وصناعات خدمات. غير أن التنمية في الصين مضغوطة حتى تبدو كأنها في آن معاً

### تشمببتر Chumpeter في القرن الحادي والعشرين

يخطئ منافسو الصين الصناعيون كثيراً، ومنهم أمريكا، فهم مصدر قوة الصين الإنتاجية. ويخشون أن تخطط الصين لهجوم مركزي آخر على الصناعات الإستراتيجية. فقد لمس العالم كفاءة اليابانيين، والكوريين، والتايوانيين عندما يركزون على قطاعات يُصمّمون على اكتساحها حتى أن المخططين الحكوميين الصينيين يحبون الحديث كمن يحاكي هجمات تمويلها الحكومة وتتسق لها تتسيقاً مركزياً على صناعات عالمية إستراتيجية تمكّن جيرانهم الآسيويين من إنجازها خلال السنوات الأربعين الماضية. غير أن كيلي تساي Kellee Tsai إذ تنظر إلى تطور الأعمال الصينية محلياً وانتهازياً، تقول إنها أبعد ما تكون عن الحقيقة. فبالنسبة لعالم تقلقه المنافسة الاقتصادية الصينية ليست الكيانات التي تُثير الخوف هي تلك القوة الماحقة التي تدعمها الحكومة.

وإنما المشاريع التي تقفز إلى الساحة هزيلة وخجولة، خَطَطَ لها ومَوَّلَهَا مستثمرون يسعون إلى الإثراء السريع.

وتعلّم الصينيون أن الرأسمالية ضرب من الدمار الخلاق، كما سمّاها جوزيف تشمببتر Joseph Schumpeter اقتصادي القرن العشرين. ويصعب أن تتهمهم بالضعف العاطفي، ويبدو أنهم يتحملون الآن الشتات الهائل الذي يعيشونه. وبهذا فإن منافسي الصين لا يستطيعون تطبيق مقاييسهم الخاصة بهم على ما سيتحمّله شعبهم كي ينافس. قليلون هم الذين يعملون في أمريكا، مثلاً، باستثناء المكسيكيين الذين يعملون في الزراعة خلافاً للقانون، ويخضعون أنفسهم بملء إرادتهم لظروف عمل يتلف كثير من الصينيين إلى القبول بها.

ورافق الإصلاح وبرزت المشروعات الخاصة في الصين بعضُ القسوة التي تجلت في خَلْق مَوْجَة جديدة من الفقر، ليس بين المزارعين فحسب. فالجزء الأكثر اضطراباً وانكماشاً في الاقتصاد تتحكم به مشروعات تملكها الدولة، كالشركات التي تشكل إرث سنوات التخطيط المركزي في الصين. فقد أُغْلقت منذ سنة 1978م أربعين ألف صناعة تقريباً تملكها الدولة. كما فقد 53 مليون شخص يعملون في قطاع الدولة الصيني أعمالهم بين سنة 1996م وسنة 2001م، بزيادة 7 ملايين شخص على مجموع عدد العاملين في خمسمئة شركة من أكبر شركات العالم الذين يبلغ عددهم 46 مليوناً. ولِنَضْع الأرقام على نحو مختلف، ففي أربع سنين منذ سنة 1998م، استغنت الشركات التي تملكها الدولة عن 21 مليون عامل. وهذا العدد يزيد على عدد جميع الأمريكيين العاملين في الصناعة.

بدأت مسيرة موت الشركات التي تملكها الدولة عندما أخذ القرويون الريفيون على عاتقهم أن يتفوقوا على احتكارات الدولة، وبدؤوا بأعمالهم الخاصة. ولم تكن القيادة الصينية مستعدة لديناميكية شعبها. فقد نُسب إلى دنج زياوبنج قوله لوفد يوغسلافي سنة 1987م، «لقد تقدمت إصلاحاتنا الريفية سريعة، وأبدى المزارعون حماساً كبيراً حتى أخذتنا تطورات الصناعات القروية على حين غرة، كأن جيشاً غريباً ظهر في الساحة يصنع ويبيع أنواعاً كثيرة جداً من المنتجات. وهذا ليس من إنجازات حكومتنا المركزية... هذا شيء لم أتصوره أبداً... لقد كان مفاجأة».

هاجمت مشروعات القرية والبلدة عجز المشروعات التي تملكها الدولة الصينية، وبدأت الأعمال الخاصة تحل محلها. وقد كان فشل الشركات القديمة، وكان معظمها في مناطق ريفية، عاملاً آخر في تمدن الصين. وإذ تمضي البلاد في التحامها حول المدن، تستطيع المناطق المدنية أن تقدم بيئة أكثر كفاءة للأعمال، لا يستطيع أن يجاريها كثير من المناطق الريفية المعزولة.

وهكذا، بينما يقلق العالم من قدرة أفضل المصانع في الصين على اغتيال فرص العمل، لأبد للصينيين أنفسهم من القلق أيضاً من أن تزيد المنافسة في بلادهم نسبة البطالة. وربما كان عدد العمال الصناعيين الذين فقدوا أعمالهم في الصين مؤخراً، وبخاصة كبار السن منهم، يعادل عدد عمال من في العالم كله مجتمعين. أما اليوم، فلا تنتج الشركات التي تملكها الدولة أكثر من خمس المنتجات الصناعية في الصين. ويفطي القطاع الخاص نصف ما تصنعه الصين وربع الناتج الإجمالي المحلي تقريباً. وسوف ترتفع هذه النسبة.

إن هذه العوامل المعززة - فقْرُ الريف، والهجرة الداخلية الهائلة، وتحرير التمويل، والدافع الذاتي المحموم إلى المنافسة، والتمدن المكثف - تُسرِّع مجموعة العمليات التفاعلية الكبيرة للرأسمالية الصينية.

